السبب في اشتمال القرآن على المتشابهات

الدكتور السيد محمد علي الشهرستاني

الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية
- لندن -

إن اشتمال القرآن الكريم على المتشابهات، لتمحيص القلوب في التصديق به، فإنه لو كان كل ما ورد في القرآن معقولاً واضحاً لا شبهة فيه عند أحد، لما كان في الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى ورسله. هذا الشرح الدقيق، والتفسير للمتشابهات في القرآن الكريم قدمه العلامة الطباطبائي.

ورغم وقوع المتغيرات بين عصر وعصر، فإن في القرآن الكريم ثوابت لا تتغير ولا تتبدل.. وقسم منه مطاوع يحتاج إلى بيان المقصود منه في كل زمان ليلائم المتغيرات والتحولات.

قال الشيخ الطوسي في التبيان (إن الله تعالى إنما خلق عباده تعريضاً لثوابه وكلفهم لينالوا أعلى المراتب وأشرفها ولو كان القرآن كله محكماً لا يحتمل التأويل ولا يمكن فيه الاختلاف لسقطت المحنة وبطل التفاضل وتساوت المنازل ولم تُبن منزلة العلماء من غيرهم. وأنزل الله القرآن بعضه متشابهاً ليعمل أهل العقل أفكارهم ويتوصلوا بتكليف المشاق والنظر والاستدلال إلى فهم المراد فيستحقوا به عظيم المنزلة وعالي المرتبة»[1].

وقال العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان في البحث عن المحكم

«الجامعة الإسلامية - ص ٥٧»

والمتشابه وتحت عنوان (ما هو السبب في اشتمال الكتاب على المتشابه).

(ومن الاعتراضات التي أوردت في القرآن الكريم الاعتراض باشتماله على المتشابهات وهو أنكم تدعون أن تكاليف الخلق إلى يوم القيامة فيه، وأنه قول فصل يميز بين الحق والباطل، ثم إنا نراه يتمسك به كل صاحب مذهب من المذاهب المختلفة بين المسلمين لإثبات مذهبه، وليس ذلك إلا لوقوع التشابه في آياته. أفليس لو أنه جعله جلياً نقياً عن هذه المتشابهات كان أقرب إلى الغرض المطلوب، وأقطع لمادة الخلاف والزيغ؟)[٢].

ثم يستطرد ويتفضل قائلاً: (وأجيب عنه بوجوه ومن الجواب بعضها ظاهر السخافة كالجواب بأن وجود المتشابهات يوجب صعوبة تحصيل الحق ومشقة البحث وذلك موجب لمزيد الأجر والثواب وكالجواب بأنه لو لم يشتمل إلا على صريح القول في مذهب لنفَّر ذلك سائر أرباب المذاهب فلم ينظروا فيه، لكنه لوجود التشابه فيه أطمعهم في النظر فيه وكان في ذلك رجاء أن يظفروا بالحق فيؤمنوا به! وكالجواب بأن اشتماله على المتشابه أوجب الاستعانة بدلالة العقل، وفي ذلك خروج عن ظلمة التقليد ودخول في ضوء النظر والاجتهاد). إلى أن يقول: (فهذه أجوبة سخيفة ظاهرة السخافة بأدنى نظر، والذي يستحق الإيراد والبحث من الأجوبة وجوه ثلاثة:

الأول: أن اشتمال القرآن الكريم على المتشابهات لتمحيص القلوب في التصديق به، فإنه لو كان كل ما ورد في الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه عند أحد لما كان في الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى والتسليم لرسله.

وفيه ـ هكذا يستمر العلامة الطباطبائي في كلامه ـ أن الخضوع هو نوع انفعال وتأثر من الضعيف في مقابل القوي، والإنسان إنما يخضع لما يدرك عظمته أو لما لا يدركه لعظمته. وبهوره الإدراك كقدرة الله غير المتناهية وعظمته غير المتناهية وسائر صفاته التي إذا واجهها العقل رجع القهقرى لعجزه عن الإحاطة بها. وأما الأمور التي لا ينالها العقل لكنه يغتر

«الجامعة الإسلامية ـ ص ٥٨»

ويغادر باعتقاده أنه يدركها فما معنى خضوعه له؟ كالآيات المتشابهات التي يتشابه أمرها على العقل فيحسب أنه يعقلها وهو لا يعقل.

الثاني: أن اشتماله على المتشابه إنما هو لحث العقل على البحث والتنقيب، لئلا يموت بإهماله بإلقاء الواضحات التي لا يعمل فيها عامل الفكر. فإن العقل أعز القوى الإنسانية التي يجب تربيتها بتربية الإنسان.

وفيه: إن الله تبارك وتعالى أمر الناس بإعمال العقل والفكر في الآيات الأفاقية والأنفسية إجمالاً في موارد من كلامه، وتفصيلاً في موارد أخرى كخلق السموات والأرض والجبال والشجر والدواب والإنسان واختلاف ألسنته وألوانه، وندب إلى التعقل والتفكر والسير في الأرض والنظر في أحوال الماضين وحرض على العقل والفكر ومدح العلم بأبلغ المدح وفي ذلك غنى عن البحث في أمور ليست إلا مزالق للأقدام ومصارع للأفهام.

الثالث: أن الأنبياء بعثوا إلى الناس وفيهم العامة والخاصة، والذكي والبليد والعالم والجاهل، وكان من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع على السواء، والحري في أمثال هذه المعاني أن تلقى بحيث يفهمه الخاصة ولو بطريق الكناية والتعريض ويؤمر العامة فيها بالتسليم وتفويض الأمر إلى الله تعالى). كان هذا من كلام العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان.

أما الآن فلنستعرض كلام شيخنا الطوسي وسيدنا الطباطبائي لنرى هل أن الأدلة التي تفضلا بها واردة مقبولة أم لا، ولا أعلم هل يجوز لمثلي أن يتكلم أمام هذين العالمين الشامخين أم لا يجوز، ولكن فليكن من قبيل كلام النمل أمام سليمان عليه السلام.

قال شيخنا الطوسي (أعلى الله مقامه) ـ وأنزل الله القرآن بعضه متشابهاً ليعمل أهل العقل أفكارهم ويتوصلوا بتكليف المشاق والنظر والاستدلال إلى فهم المراد ـ. وقال سيدنا الطباطبائي ـ إن اشتماله على

المتشابه إنما هو لبعث العقل على البحث والتنقيب لئلا يموت باهماله بإلقاء الواضحات التي لا يعمل فيها عامل الفكر ـ كلا، العالمين يعتبران سبب اشتمال الكتاب على المتشابه هو بعث العقل على البحث وإعمال الفكر للتوصل إلى المراد من المتشابه.

وهذا تماماً يخالف قوله تعالى في النهي عن اتباع المتشابهات بقوله: **﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾**[٣] وكذلك مخالف لصراحة آخر الآية: **﴿ولا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾**، والتأويل هو فهم المراد. وهذه الصلاحية منحصرة برسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام المعصومين بموجب اعتقاد عامة المسلمين واتباع مدرسة أهل البيت خاصة وبموجب اعتقاد العالمين المذكورين نفسيهما. إذاً لا يجوز أن يكون سبب اشتمال الكتاب على المتشابه هو بعث عقول الناس وإعمال أفكارهم للتوصل إلى المراد من المتشابهات.

كما أن الإمام الصادق عليه السلام يقول: (فأما المحكم فتؤمن به وتعمل به وتدين، وأما المتشابه فتؤمن به ولا تعمل به[٤] وهو قول الله عزَّ وجلّ: **﴿وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء تأويله﴾**). فالإمام عليه السلام يمنع في هذا الحديث العمل بالمتشابه أي التحري العقلي فيه، منعاً باتاً بل يقول، تؤمن به، أي تصدقه وتقبله تعبداً. أما معرفة المراد منه فهو منحصر بالله وبالراسخين في العلم.

أما إن كان المقصود في بعث العقل على البحث وإعمال الفكر للتوصل إلى المراد، هو التحري في الأحاديث والروايات، للإطلاع على معرفة مقصود الله عزَّ وجلّ من الآيات المتشابهة. فإن هذا العمل لم يكن إعمال العقل والفكر بل هو مجرد تفتيش وتنقيب وتحرٍ ولا علاقة له (بموت العقل بإهمال).

أما الدليل الأول الذي تفضل به العلامة الطباطبائي وهو (أن اشتمال القرآن الكريم على المتشابهات لتمحيص القلوب في التصديق به، فإنه لو

«الجامعة الإسلامية ـ ص ٦٠»

كان كل ما ورد في الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه عند أحد، لما كان في الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى ورسله).

وهذا الكلام هو شرح دقيق لمعنى الإيمان والتعبد أي أن المتشابهات جاءت في القرآن الكريم لمعرفة مدىٰ انصياع الناس إلى قبول الآيات المتشابهة وإيمانهم وتصديقهم تعبداً لقول الله تبارك وتعالىٰ.

ولكن المتشابهات هي الآيات التي يحتمل فيها وجهان من المراد أو أكثر من ذلك وأن وجهاً واحداً من هذين الوجهين أو الأوجه، هو المراد والباقي لم يكن المراد منه.

بينما التعبد هو قبول شيء لا يتمكن الإنسان من معرفة علته وسببه فيقبله إيماناً واعتقاداً منه بصاحب الأمر والنهي. فلو كان (معقولاً واضحاً لا شبهة فيه عند أحد لما كان في الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى ورسوله) كما عبر عنه العلامة الطباطبائي. إذاً الآيات المتشابهة لا علاقة لها إطلاقاً بموضوع التعبد، والقبول بدون قيد وشرط. كما أن المتشابهات لا يعرف المراد منها، بينما التعبد يُعرف المراد منه الكلام والأمر والنهي ولكن لم يُعلم السبب والدليل لهذا الأمر والنهي.

مثال: من الآيات المتشابهة المتفق عليها الآية الكريمة: **﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾**[٥].

إذا كان السبب الأول الذي بينه العلامة الطباطبائي وارد منه، فمعناه أن المكلف الجاهل أو البسيط حينما يسمع هذه الآية عليه أن يصدق بأن الرحمٰن جالس على العرش ولو لم يعرف كيفية ذلك. بينما التشابه في هذه الآية هو معرفة المقصود من هذا الاستواء هل هو الجلوس أم السيطرة والقدرة والهيمنة.

والمثال الثاني نعطيه لآية تعبدية وهو قوله تبارك وتعالى) **﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾**[٦].

«الجامعة الإسلامية ـ ص ٦١»

وهو أمر وجوبي للزوجة المطلقة ثلاثاً إذا أراد زوجها الزواج منها مرة أخرى، فمن الواجب أن تنكح زوجاً آخر كما هو معروف في المسائل الفقهية.

هذا أمر صعب القبول لدى عامة الناس، وما دام المشرع لم يبين العلة الحكيمة فالسبب غير واضح حتى للعالم والمفتي إنما هو أمر الله ويجب أن يطاع إيماناً وتعبداً. فهل نتمكن أن نقول أن هذه الآية من المتشابهات؟ كلا ثم كلا فهي من المحكمات وجلية في الوضوح.

أما السبب الثالث الذي بينه العلامة الطباطبائي فهو مزيج من السبب الأول والثاني. وبما أننا ناقشنا السببين فلا حاجة للاستطراد. ولو سلمنا جدلاً من أن سبب اشتمال الكتاب على المتشابهات هو إثارة العقل والفكر عند العلماء والمفكرين وأصحاب الكفاءة في التحقيق وامتحان لإيمان البسطاء والمستضعفين من أجل معرفة درجة الخضوع لأمر الله.

هناك آيات محكمة كثيرة تحرك وتشجع الناس على تمرين العقل والاستفادة منه للوصول إلى الكمال الإنساني نظائر الآيات التالية ولم تعد من المتشابهات.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١ ـ **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾**[٧].

﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[٨].

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾[٩].

﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث

«الجامعة الإسلامية ـ ص ٦٢»

من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾[١٠].

كما توجد نماذج من الآيات المحكمة التي تؤكد التزام التعبد وتمتحن قلوب المستضعفين والمجتهدين لمعرفة مدى خضوعهم لأمر الله كالآيات التالية:

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾[١١].

﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير﴾[١٢].

﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾[١٣].

﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾[١٤].

فلا حاجة إذاً لوجود المتشابهات لتحريك العقل وإثارة الفكر عند ذوي الاستعداد أو لامتحان إيمان البسطاء والمستضعفين، خاصة وإن المتشابهات تعطي الفرصة للذين في قلوبهم زيغ للاستفادة منها لِبَث الفتنة والفساد، وتأويله حسب آرائهم وأغراضهم وأهوائهم وهذا أمر خطير. ولو لم تقتضِ الضرورة لما كان من الحكمة وجودها في القرآن الكريم.

بل لا بد وأن السبب في اشتمال الكتاب على المتشابهات أهم بكثير مما ذكره بعض المفسرين ومما بينه بعض العلماء الأعلام طيّب الله ثراهم.

الثابت والمتغيّر:

لقد اتفقت الخاصة والعامة على أن القرآن دستور أبدي ومعجزة خالدة إلى يوم القيامة وحلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد

حرام إلى يوم القيامة. كما ثبت بالاستدلال العقلي في مقدمة أبحاث هذا المدخل، إن الله تبارك وتعالى أسبغ نعمه على البشر وبين لهم كيفية الاستفادة من هذه النعم بالشرائع السماوية التي تنتهي بالشريعة الإسلامية، والتي قوانينها وأنظمتها في القرآن الكريم. وعلمّنا أن القوانين والأنظمة عبارة عن بيان الصلات والعلاقات بين ذات الأشياء وخواصها.

فإذا كانت الصلات والعلاقات أو الذوات والخواص ثابتة تكون القوانين ثابتة وإذا كانت متغيرة يجب أن تكون القوانين متغيرة أيضاً. وبما أننا نرى كثيراً مما في الكون متغيراً ومنذ ألف وأربعمائة سنة إلى يومنا هذا حدث تحول كبير في معالم الحياة، فكيف يمكن أن يكون القانون الثابت أو الكتاب الثابت قابلاً لإعطاء قوانين الحياة في هذا العالم المتغير إلى يوم القيامة؟

الجواب:

لو استعرضنا علمنا ومعرفتنا لما في الكون من ذوات وصفات نجد بعضها ثابتاً وبعضها متغير. ومثال على ذلك لو جمعنا اثنين إلى اثنين تكون النتيجة أربعة ولا يمكن أن تكون أكثر ولا أقل.

اجتماع الليل والنهار محال لا يمكن أن يتغير.

دفع الضرر عن النفس فطري لا يمكن أن يتغير.

اشغال المادة حيزاً من المكان شيء لا يمكن أن يتغير.

الحرارة ملازمة للنار ذاتية لا يمكن أن تتغير.

الظلم وقتل النفس وأخذ مال اليتيم كل ذلك قبيح لا يمكن أن يتغير.

كل هذه الأمور من علاقات وصفات وذوات ثابتة لن تتغير مهما تمادت الأيام وتغيرت الأحوال والأزمنة والأمكنة وغيرها.

وهنالك أمور وخواص وعلاقات وحتى ذوات متغيرة علمنا بها

«الجامعة الإسلامية ـ ص ٦٤»

وفهمنا لها واستفادتنا منها تتغير بتقدم العلم وبتغير الأحوال وباكتشاف المكنونات. ومثال لذلك: علِمنا بحركة الأرض، قوانين الجاذبية، والحركة، تأثيرات الماء والهواء والحرارة وغيرها من الأجسام. هذه علوم ومعارف عن بعض الذوات والخواص الثابتة والتي كانت إما خاطئة كالاعتقاد بثبات الأرض وحركة الأفلاك، وبعضها لم تكن معروفة عرفها الإنسان فيما بعد كالجاذبية والذرة والكهرباء وغيرها. فذوات وخواص هذه الأشياء ثابتة ولكن العلم بها أو العلم بعلاقاتها متغير حيث تغيرت بمرور الأزمان من جراء تقدم العلم والاكتشافات.

ومن الذوات أمور متغيرة عرفها الإنسان كاستحالة الميتة إلى الملح أو تحول الخمر إلى الخل وما شابه ذلك. ومنها ما لم يعرفها الإنسان عند نزول القرآن وعرفها فيما بعد فسخرها لصلاحه وفائدته مثل انتقال الوقود إلى طاقة حرارية، أو تغير الأمواج المغناطيسية إلى طاقة كهربائية أو استبدال كثير من المواد الأولية إلى عناصر كيماوية وعقاقير طبية. ومنها ذوات ثابتة ولكن خواصها وتأثيراتها لم تكن معلومة فاكتشفها الإنسان وأصبحت تأثيرات هذه الخواص متغيرة، فاخترع الإنسان من هذه الخواص اختراعات جمة كالاستفادة من تأثير الهواء على أجنحة الطائرة لرفعها في الجو أو تأثير البخار على حركة العجلة أو تأثير الأمواج الإلكترومغناطيسية على نقل الأمواج الصوتية وغيرها فهي ذوات ثابتة ولكن الاستفادة من تأثيراتها وخواصها متغيرة، تغيرت هذه الاستفادة بتقدم العلم والتكنولوجيا.

هذه نماذج من المتغيرات التي يشعر بها الإنسان فقد كان قديماً يسافر على البغال والحمير من مكان لمكان فأصبح ينتقل بالعربة وثم بالقطار وثم بالسيارة واليوم بالطائرة والصواريخ.

وكانت اتصالاته بالرسالة وثم التلغراف وثم التليفون وثم الراديو وثم التلكس واليوم بالفاكس. وكان يضيء بيته بمصابيح الزيت وثم الفانوس وبعده بالمصباح الكهربائي واليوم بالفروسنت. نعم هذه متغيرات كما فصلناها وتلك ثوابت على ما بيناها.

«الجامعة الإسلامية ـ ص ٦٥»

إذاً ما في هذا الكون شيء منه ثابت لن يتغير وجزء آخر منه متغير يتغير بمرور الأزمان وبتقدم العلم وباكتشاف الإنسان لما هو مكنون في الذات أو الخواص. ولذلك فمن الطبيعي أن يكون القانون الموضوع من قبل الله للاستفادة مما سخره للإنسان في هذا الكون، جزءاً منه ثابتاً لن يتغير، وقسم منه مطاوع يحتاج إلى بيان المقصود منه في كل زمان ليلائم المتغيِّرات والمستحدثات.

وهذا هو إعجاز القرآن الكريم. فهو قانون أبدي إلى يوم القيامة يجب أن يغطي الثابت والمتغير لذا «منه آيات محكمات هن أم الكتاب» لتغطية الثوابت «وآخر متشابهات» لتغطية المتغيرات.

ولكن خوفاً من التلاعب في المتشابهات أي عدم بيان المقصود الواقعي في كل زمان ومكان مُنع العمل بالمتشابهات منعاً باتاً قبل الرجوع إلى الراسخين في العلم الذين ينحصرون انحصاراً تاماً بالنبيﷺ وأهل بيتهعليهم السلام بموجب التفويض الذي فوضه الله إذ قال: ﴿**لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾[١٥]. والرسولﷺ أعلن صلاحية التأويل للأئمة المعصومين من آله في الحديث المتواتر المجمع عليه من قبل الصحابة وأئمة المذاهب الإسلامية وهو حديث الثقلين (إني مخلّف فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض).

ومعنى هذا أن أهل بيت رسول اللهﷺ المعصومين هم عِدْل القرآن ولن يفترقا حتى يردا الحوض. وهذا أمر طبيعي جداً فلو لم يكن هنالك مسؤول للمتشابهات لم تتم الهداية القرآنية بل إلقاء الناس في الضلال (والعياذ بالله).

لذا يجب أن يكون الإمام المعصوم حياً موجوداً مسؤولاً عن تأويل المتشابه إلى الأجل المعلوم. وقد قال شيخنا الطوسي: (لأنه لا يجوز أن يأمر بالتمسك بما لا نقدر التمسك به)[١٦].

«الجامعة الإسلامية ـ ص ٦٦»

وبهذه الصورة يكون القرآن إلى جانب العترة نظاماً متكاملاً لجميع شؤون الحياة الإنسانية من يوم نزوله على صاحب الرسالة وإلى قيام يوم القيامة مع جميع المتغيرات التي تحدث في عالم التكوين في مستجدات مادية وتحولات سياسية واجتماعية وإنسانية، والله العالم.

د. السيد محمد علي الشهرستاني

الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية

- لندن -

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الهوامش:

(١) الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ـ التبيان في تفسير القرآن المقدمة ـ ص١١، طبع بيروت.
(٢) السيد محمد حسين الطباطبائي ـ تفسير الميزان ـ ج٣ ص٥٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.
(٤) محمد بن مسعود السمرقندي المعروف بالعياشي ـ كتاب التفسير ـ ج١ ص١٦٣، طبع إيران.
(٥) سورة طه، الآية: ٥١.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٣٠.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٨) سورة النحل، الآية: ١٢.
(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(١٠) سورة الجاثية، الآية: ٣ ـ ٥.
(١١) سورة النساء، الآية: ٤٧.
(١٢) سورة التغابن، الآية: ٨.
(١٣) سورة النساء، الآية: ١٧٠.
(١٤) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.
(١٥) سورة النجم، الآية: ٥٣.
(١٦) الشيخ الطوسي ـ التبيان ـ (مقدمة المؤلف) ص٤، طبع بيروت، دار إحياء التراث العربي.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى